عروبة مصر اولا

وصف مذيع التلفزيون الفرنسي رحلة الرئيس المصري الى حيفا المحتلة بأنها كانت سهلة وناجحة ، لأن السادات وافق بنعم صريحة على ثلاثة أمور ؛ وافق أولا على امداد « اسرائيل » بماء النيل ووافق ثانياً على عدم تجزئة القدس الموحدة ، ووافق ثالثا على استبعاد التفكير في قيام دولة فلسطينية .

وكان المذيع الفرنسي حريصاً على أن يختتم النبأ بقوله ان « الانجاز الأهم » هو ان الرئيسين المصري والاسرائيلي اتفقا على ان ينادي كل منهما الآخر باسمه الاول مجردا من الألقاب ... أنور وبيغن فقط .

وكان بعضهم ، وربما ما زال ، يصف الرئيس المصري بالذكاء الخارق . فقد استرد الأرض دون حرب وكان العربي الأول الذي يحصل على لقب « حامل جائزة نوبل من أجل السلام » ..

وقد يكون الرئيس المصري ذكياً ، وان كنا نشك في أن الموافقة على طلبات « اسرائيل » تحتاج الى ذكاء . بل لعل « الموافقات » الاخيرة هي التي تحتاج الى ذكاء في قراءتها .

وعدم تجزئة القدس لا يعني توحيدها تحت الراية العربية ، بل يعني الاعتراف المطلق بها « عاصمة ابدية لاسرائيل » كما يرى الاسرائيليون انفسهم ، ولا توافقهم من دول العالم واحدة ، حتى أميركا .

واستبعاد قيام دولة فلسطينية يكشف أوراق لعبة « كامب ديفيد » ومهزلة الحكم الذاتي ، كشفا كاملا .. فبعد ان كان الرئيس المصري يقول ان الحكم الذاتي مقدمة لحق تقرير المصير ، تنازل نهائياً عن هذا الادعاء .

هذه الموافقة الشاملة على طلبات « اسرائيل » ما علاقتها بالذكاء ؟

يكرر البعض جوابهم مستبعدين عروبة مصر وانتماءها القومي . فيقولون ان الرجل يسترد ارض بلاده الى حدودها الدولية . وأنه بالتبادل التجاري مع الدولة اليهودية سيجلب الرخاء الى شعبه .

لو أننا اعتمدنا هذا المنطق في التفكير ، وألقينا نظرة سريعة على ما يجري في مصر الان ، لانتابنا الذعر والهلع .. فالدخل القومي للفرد بلغ الحد الادنى الذي لم تعرفه مصر طيلة الربع القرن الأخير ، في وقت واحد مع تفاقم مجنون في الأسعار ، واختفاء مأسوي للسلع الرئيسية ، خاصة بعد رفع دعم الدولة . ومن ناحية أخرى ، فالتضخم والسيولة الورقية للبنكنوت دون رصيد وصلا بقيمة الجنيه المصري الى الحضيض . وبميزان المدفوعات الى عجز شامل عن سداد الديون الاجنبية (للشركات الغربية لا للدول الاشتراكية التي اعلن السادات أنه لن يسدد ديونها) .

فاذا أضفنا البطالة السافرة التي بلغت الحد الاقصى بين القطار « العالم الثالث » ، جنباً الى جنب الانفجار السكاني المروع والذي اعلنت اجهزة الاعلام المصرية نفسها أنه بلغ (درجة الاختناق التام) اذ وصل تعداد هذا العام الى ٤٦ مليون نسمة ... فإننا نستطيع ان نتخيل أي « مصير اقتصادي » وصلت إليه ارض الكنانة .

مساعدات اميركا والغرب كأنها ماء يصب في اناء مثقوب ، ومع ذلك فالرئيس المصري يعتمد على « الاقتصاد الاسرائيلي » عبر التبادل التجاري بين البلدين .

أكبر خبراء الاقتصاد الدوليين ، وبعضهم من الموالين للدولة العبرية ، يؤكد هذه الايام بالذات ، ان المساعدات الاميركية والدعم الصهيوني من جميع انحاء العالم لن ينقذ الاقتصاد الاسرائيلي من الانهيار ، وبالرغم من ذلك فالرئيس المصري يعتمد على هذا « الاقتصاد المنهار » في انقاذ وطنه من كارثة محققة .

وذلك كله يدخل ، عند البعض ، في باب الذكاء .

ولكن الحقيقة شيء مختلف تماما ، سواء كان الرجل ذكيا او لم يكن .. فليس من التخطيط في شيء ان يسترد المرء شبه جزيرة سيناء في مقابل مصر كلها . وليس من « الدرس العميق » أن يبيع الانسان شيئا لا يملكه . وهذا موجز ما فعله السادات

فعلا .. فاسترداد سيناء لم يرادف عمليا سوى تحويل مصر ذاتها الى مزرعة للدولة الصهيونية والولايات المتحدة ، اما الشعب نفسه ، فلم يعد يسمع عن التنمية او مشاريع الانتاج او تشغيل الايدي العاملة او بناء المساكن الشعبية والمستشفيات والمدارس او اصلاح شبكات الهاتف والمواصلات .

ومن جهة اخرى فان ما يسمى بالحكم الذاتي للفلسطينيين لم يعد يرادف عمليا سوى بيع القدس والضفة الغربية وقطاع غزة ... دون ان يكون السادات صاحب هذه الاراضي او « ممثلا شرعيا » للمواطنين الذين يقيمون فوقها .

وليس هذا كله من « الذكاء » في شيء انه قد يدخل في ابواب اخرى لا نسميها ولكن ما يعنينا هو ترجمة المعنى النهائي لمثل هذا الذكاء ، وهو نزع مصر من انتمائها القومي الوحيد ، وهو العروبة .

فالشعب العربي في مصر هو ضحية هذا « الذكاء » الذي يجلب العار والدمار للارض والانسان في مصر وكافة بلاد العرب . وعروبة هذا الشعب هي لحمه ودمه وعظمه ، حاضره ومصيره ، فضلا عن ماضيه ، لذلك فان أذكى الأذكياء لا يستطيع ان يغير جلد شعب ولو عينيه . يستطيع فقط ان يسلخ الجلد وان يفقأ العينين ، ولكنه يفاجأ - طال الوقت او قصر - بان الجلد يظهر من جديد وان العينين يعودان اليهما البصر . فعروبة الشعب في مصر ، ليست شعاراً حماسياً بل هي حياة ووجود ، هي التنمية والتقدم والكفاح المشترك مع سائر العرب ، لاسترداد الارض والشرف ... ولو تطلب ذلك المزيد من العناء .

عشر سنوات تكاد تمر والشعب العربي في مصر صابر صبر المؤمنين ، ولكنه فجأة حين يعرف ابعاد « الخديعة » الكاملة ... سيقدم أذكى الثورات ، وأزكى الثمرات ...

... ولنؤمن فقط بعروبة شعب مصر .

وليد أبو ظهر